... ثم مات !

وضجت في وجوه الناس الوان من المأساة
وحتى ارجل الغرباء لم تلمس تراب الارض
كلاب الدرب لم تنبح .. فحر الصيف معقود على الابواب
وحتى ساحة القريه ...
تمدد فوقها الخوف الذي يتسلب الالباب
وحتى الضب لم يربأ على كفيه . حتى مرجة اللبلاب
تلاشت زحمة الاقدام عبر الشارع الممتد
تلاشت زحمةالكلمات في راووقه الاسود
سوى تفل تنفضه الرياح على الصباح القفر
سوى تفل تمغمغه مناقير الطيور الصفر
سوى الاذعان منقوشا على الاعين
ومات الشيخ يا مولاتي الحسناء .. مات الشيخ
وموت الشيخ يعني أن خطبا حل
وموت الشيخ ايذان بعام عاقر ممحل
وموت الشيخ ميقات لكل جلل
وقيل : حياة بعض الناس تاريخ .. اضافات الى التاريخ
نضم سطوره فنا من الانسان
نصاويرا من الاحساس شتى في كتاب الدهر
وما كانت حياة الشيخ يا مولاتي الحسناء
سوى تاريخ تلك القرية الحلوه
سوى احساسها الاخضر ..

...

اقول وكان ان ودعت تلك الدار ذات شتاء
وعيش الريف مولاتي كثير الخصب
وعاء التمر مبذول لمن يرتاد باب الدرب
والجوعان يا مولاتي الحسناء ان يطعم
وكانت ليلة التوديع عطلا من عزاء القلب
تلوى جسمي المقرور في جلبابها البارد
ولم يك في وداع الطفل غير الشيخ
اتى ليقول : طوبى لك
وحط اليمن في رحلك
ولم اشعر بغير يد تقول : رشدت
بغير اصابع مرت على كتفي في طيبه
بغير الدمع نز بعينه الوطفاء
وقال : — وكان اذ يبكي كأن الصبح في عينيه —
بني الرزق في الاسفار
وحيث الماء يجري فالحياة تكون

...

حملت متاعي المكدود اذ وافى دخان قطار
فضولا من طعام الريف .. شيئا من عفير الخبز
وشيئا لم تزل امي تلونه باعواد من الخبيز
ورحت اجوب مولاتي ضمير التيه
ظللت اجوب اوطانا يقال لها بلاد الله
ينام الصل في محرابها والضبعة الشمطاء
دروبا تستدير على صماخ الشمس
وابعادا من التهجير تشوي فروة الحرباء
ولم يك زادي المكرور الا الجوع
ومر العام بعد العام ...
يخط على الجبين : « غريب »
يدق على جدار العمر صوت : « غريب »
وضاعت في زحام العمر ايام مزينة بزهر العمر
ملاعب قلبي المفروحة الخضراء
ديار الاهل .. حيث الاوجه الفطرية التعبير
ديار الحب .. حيث الحب كسرة حنطة وبلالة من ماء
وحيث يقال للضيف النزيل : حللت في اهلك
لكل مودع في الليل : طبت مساء
ومر العام بعد العام ..
كمحراث يشق العظم
كالف يد تجندلني على السكين .. الف وضم
وكان لذلك المسكين ان يلقي عصا الرحله
اقول : وكان للمسكين أن يلقي عصا الرحله
وحين اطل وجه الصيف ..
شددت الرحل مولاتي وقلت : الاهل
عسى ان يرتق المحزون احزانه
وقلت : هناك تخضل التحايا .. تورق الايام
تلامس اصبع الكلمات جرحا راعشا في القيد
فيا مرحى .. ! .. وجاء السعد
ويا ما كان اطولها ليالي البعد .. !
وعاد الطفل .. ليس بوجهه المنخوب وجه الطفل
بعينيه امتثال هادىء .. دهر من الغربه
اسى يفضي بان قد راح كل جميل
بلا اوبه ...
وقال لمن اتده مبشرين : وكيف حال الشيخ ؟

وقال لمن اتوه مبشرين : الام صار الشيخ؟
ولكن لم يجد مولاتي الحسناء ..
سوى رجع الصدى الاجوف
سوى صمت تغلفه ظلال اسف
وضجت في وجوه الناس الوان من المأساه
تلفت واحد منهم مشيرا حيث افراد من الصبيه
ينام ازاءهم كلب كسير الانف
وقال وما يزال بصوته المحزون بعض بكاء :
حيال الظهر سار النعش
اضالعه نسيج من اكف الصبية الباكين والاذرع
ذؤابته كسارية الفنار مجاجة من دمع
ومنذ رحيله والكل بما يهدأ
يطوف باهل تلك البلدة التعساء
يذكرهم فراق الشيخ ...

...

وغاب الناس ...
مشيت اجر تاريخا من الخيبه
احاسيسا بان الجوع خبز الرحلة الجوفاء
ولا ادري لماذا كان يملأني شعور صارم بالخوف ؟
لماذا كنت لا ادري الى اين الحياة .. وكيف ؟
على اني اطلت عليك يا مولاتي الحسناء
لان القول ذو عثرات
فمعذرة اذا طاشت بي الكلمات
اذا لم تربت الالفاظ كف من رواء ما
لاني انما اقتات تلك الاحرف الصدئات
لاني انما اطعمتها من قلبي الممرور
جراحا مرة ودما ..
لايماني بطيب عزاء مولاتي .. بحسن قبولها المشكور
وما انا بالذي يدحو تماثيلا من الصلصال
ولست بطامع مولاتي الحسناء ان استجدي الاسماع
بنافلة من التعبير
لاني ما ازال ــ كعهد مولاتي ــ قصير الباع
ولكني لكي احظى بحق رواية التاريخ
لكي احظى بشيء ساذج عن كيف يحيا الناس
سأخدش هيبة الموت الجليل .. افض ذاك الختم
ساخدش هيبة الناووس .. اكسر ذلك الطوطم
ساعرض قصة بلهاء ..
بلا فن .. بغير ذريعة من فن
فما كانت لتنهض غيران تبقى طراز حياه

...

اقول : يشاع ان هناك حيث النيل يجري في صعيد الريف
حيال الساحل المخضل ..
هناك .. وحيثما الامواج ترقد في عذار التل
وحيث جدائل الهداب والحرمل
تنام على ذراع النيل ضاحية باسم « الدير »
تدوس الشمس فوق رمالها البيضاء كل صباح
وثم رواية في الناس ان الدير كانت بلدة العذراء
على اعتابها باض الحمام وعشش العنكب
على احجارها وشم من الانجيل
وفوق صخورها كانت صلاة الرب
ومن تاريخ هذا العام ...
تروح سفائن الزوار تعبر حائط الانواء
معبأة باعراق من الريحان والسمسم
محملة مناديلا من السعف الكريم تنوء فوق اليم
تبارك مولد العذراء ...
يقال : وعاش تحت سماء هذا الدير انسان رقيق الحال
كمثل نباته الطيب ..
كريم مثل وفرة نهره وحقوله اللفاء
محياه الودود السمح مثل نخيله المخصب
على ان الحديث يدار يا مولاتي الحسناء
بان الشيخ لم يك من رجال البلدة الاصلاء
اتاها نازحا فيمن اصابتهم حياة الجدب
وفوق حماره رحل قديم .. سلة ممسوحة بالقار
رحى مشقوقة .. كلب .. وباطية من الفخار
وفي فوديه تمشي جرة من شيب
وآنس فيه اهل الدير انسانا عزيز الجار
نقي الثوب ..
وما وجدوه الا يستحث بكفه مغزل
فسلوة شيخنا ــ مولاتي الحسناء ــ كانت غزله للصوف
وكان ان تهز الضحكة البيضاء اعطافه
الى ان يستطيل قذاله للارض
كذلك عاش ...

...

حكوا : واذا يجن الليل ..
وحين الدير يفرغ من زحام القوت
يروح يلملم الاطفال والصبيه
هراوته على الابواب تهتف : يا سراة الدار
ويا رواد علم الله .. يا احفاده الامناء
وعند شجيرة في مدخل القريه
ازاء قوارب العمال في الميناء
يروح يطارح الاطفال الوانا من الاسمار
يحدثهم عن الجنه
وان الطفل في الدنيا ثواب ابيه
وان البحر يضرس حين نتفل فيه

وان القلب لا يحيا على خبز من التمويه
فمن جفت حميا قلبه فالخمر لا تعرك ابهامه
وكان الشيخ يا مولاتي الحسناء
يرى ان الخلود نسيئة للموت
فمن طابت حمياه فان الموت لا يرديه
لان الموت لا يمشي الى صدر يشد الكور في ضلعه
لان الموت حين يدق باب نفوسنا البيضاء
فلا يبتاع الا حزة السكين في نطعه
وكان يعيد بعضا من مآثر اولياء الله
وكيف الدار كان اكامها خلا ونفضة زيت
قفيزا من يبيس التمر .. من دخن .. وصاع شعير
وكيف الناس كانوا رغم ضيق معاشهم سعداء
وكانوا يطعمون على بساط واحد منشور
وعاء واحد يكفي طعام اثنين ...
وحين يكاد صوت المرفأ المتعوب ان يهدأ
وحين الليل يغمض جفنه المتعب
تعود قوافل الاطفال يا مولاتي الحسناء
كاسراب من الجندب
كذلك مرت الايام ..
تسوق الخير في اذيالها .. تسخو بكل عطاء
الى ان جاء يوم لم يزل امثولة السمار
وغاب الشيخ عن اولاده الابرار
عن الاحباب والخلطاء
تخلى عن سدانة بيته المأهول بالزوار
وعاشت قريتي مرمدة العينين لا تطرف
مواقدها بغير ذؤابة من نار
عذاراها على الابواب : لا كحل ولا مطرف
ويا مولاتي الحسناء نام الدير اياما على جرحه
ونام الدير يا مولاتي الحسناء اياما بلا فرحه
بلا اطروفة تحكى .. بلا ملحه
وفي امسية من امسيات الصيف
وكان الصيف يلقي ظله المحرور في الاشياء
وكانت افرع الصفصاف لا تصغي لقاقات من الغربان
مشى بعض النساء الى خليج في حذاء الدير
لكي يملأن بعضاء من جرار الماء
وعند النهر صافحهن صوت عائد من حافة الميناء
يطوحه اندفاع الموج
وكان الصوت يا مولاتي الحسناء مكفوءا على نفسه
يقطعه اسى يمتد في جرسه
وفي نبراته أعياء ...
حكوا : والصوت كان يسير فوق مشارف القريه
يحدث ليلها والنجم والاشجار
وكان يقول : يا بدر السما .. ياكرمة الندماء
يعانق وجهها المرصود في الاحجار
ويا ايقونة للحب .. علقها اله الحب
اذا ما رحت تصعد في بحار ما لها اشطاء
فقل طوبى لمن نفض من اشواقه عطفيه
لمن رش الحنوط الغض في برديه
وطوبى للذي بارك زيت القلب
كذلك ظل رجع الصوت يثقل كاهل القريه
يوافيها مع الاطيار في اعطاف كل مساء
مع القطعان حين تلوب في الصحراء
حكوا : واشيع ان الصوت صوت الشيخ
حكوا : واشيع ان الشيخ كان احب قبل فراقه للدير
فتاة حلوة العينين ..
مزينة بالوان من الدملج في الزندين
وترنيق من الحناء في الكفين
وليس الصوت الا الروح تخرج من ضمير الماء
وليس الصوت الا الروح تهبط من وصيد الموت
على شباكها المغسول بالاضواء
على اني — اجل مولاتي الحسناء — لا اصغي لهذا الصوت
لان فؤادي المسكين ارتج كل ابوابه
لان وجودي المفصوم عن اسبابه الوى باسبابه
ومن يدري ؟ لعل حياتنا احدى حكايا الموت !
فمن ان الزهور اصابع من صخر
ومن ان الحروف مطية ثرثارة تقتادنا للصمت
فان الحزن وجه من وجوه البشر
اليس الروض في ريعانه لونا من التابوت ؟
اليس اللؤلؤ المرجوح في الميزان لونا من جمار الطين ؟
ولكني سئمت الان هذا الهذر المقوت
وها قد جئت يا مولاتي الحسناء .. ها قد جئت
بكل بشاعتي اقبلت ..
بكل تعاستي القيت مرساتي على بابك
لانشد في خريف العمر هذا اللحن
لاكسر عقم تلك الاحرف الصفراء
لكي اسمو بها مرثية عذراء لم تهتك لها عذره
لتلك السدة الشماء
لعرشك .. ذلك الحلم الذي ضمخته بالعطر
وحين يقول بعض الناس يا مولاتي الحسناء :
وما جدواه قول الشعر ؟
آذا قالت وصيفتك التي ترفع زنارك :
وما جدواه قول الشعر ؟
اذا همس العفاة ببابك الممطور بالدعوات :
وما جدواه قول الشعر ؟
فقولي للذي يتحيف الحكمه :
وماذا يملك المحزون الا صوت احزانه ؟
وماذا يملك المحروم الا وجه حرمانه ؟
اجل مولاتي الحسناء : ماذا يملك المجزون والمحروم ؟!

الاسكندرية

عبد العظيم ناجي